مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المناخ والبداوة في المغرب
خلال العصر الوسيط

د. عمر بنعيش

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي - زاكورة

باحث في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّص

تتناول هذه المساهمة جانبًا من تاريخ أهل البادية المغربية، مما بقي مختفيا بين أسطر نصوص المصادر التقليدية، وثانيًا بعض تأليف الآداب المساعدة للتاريخ (الفقه، النوازل، المناقب...). لقد بزغ التأليف في تاريخ البادية المغربية في سياق الاهتمام المتزايد للمرخين المغاربة حول مواضيع التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعوالم الهامشية والمغيبة من الكتابات التاريخية التقليدية، فالبادية كما المناخ لم يكونا ضمن اهتمامات المرخين التقليدين، لكن تقدم المعرفة التاريخية اليوم وتطور مناهجها وأدواتها وتوسيع دائرة الوثائق المعتمدة، سمحت "للمؤرخ" في تبني موضوعات جديدة والاندفاع في مغامرات استكشاف الماضي تتعدى الأسئلة والاهتمامات البسيطة التي شكلت مضمون التاريخ في عصور وعهود خلت، فماهي حدود استثمار المادة المصدرية في الكتابة حول البادية المغربية؟ وما درجة المغامرة في الربط بين ثلاثي؛ الماضي والبادية ومتغير المناخ؟ تلكم بعض التساؤلات التي سنعمد إلى الإجابة عنها من خلال هذه المساهمة، ولو بشكل ضمني في تمهيد وثلاثة محاور، تشمل النظر في العلاقة بين المناخ والانتعاش البدوي بطرفيه الرعوي والزراعي، ثم امتداد البث في أثر المناخ على السكن. وعبر هذه المحاور تجلى التفاعل الايجابي بين أهل البادية المغربية والمناخ خلال العصور الوسطى، بما يتجاوز المعالم العمرانية والأنشطة البشرية إلى المكون والمحتوى الثقافي للشخصية البدوية المغربية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٥	ديسمبر	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٨	يناير	٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

تاريخ العصور الوسطى؛ العمارة والعمران والمدن؛ البدو؛ البادية المغربية؛ المناخ؛ الانتجاع (الرعي)؛ الفلح (الزراعة)

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.271517

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عمر بنعيش. "المناخ والبداوة في المغرب خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الخامس والخمسون؛ مارس ٢٠٢٢. ص ٥٠ – ٥٦.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: benaich.omar@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَوريةُ كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

كتب ابن خلدون "الحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة"، لعل في المقولة وما تختزله من موقف وحكم اتجاه الكتابة حول البادية في المصادر التاريخية المغربية الكثير من الدلالات وأوجه المعقولية، ولعلها تختزل لسان حال الباحث في تاريخ هذا الجزء الأساس من أجزاء التاريخ المغربي، لكن ومع ذلك وجبت الإشارة إلى ضرورة تجنب المغالاة في الحكم على طبيعة تعامل المصادر الوسيطية مع المجال الريفي بالمغرب، سواء بالإهمال المطلق أو عكسه بالاهتمام الكافي لبناء معرفة مستوفية حول مختلف جوانب الحياة الاجتماعية بهذا المجال، غير أن اللافت للانتباه هو عناية عدد من هذه المصادر بتسجيل أوصاف المسالك والقرى والاحياء البدوية، والتي تختزل في بعض مضامينها معطيات حول الأثر المناخي[1] في حياة سكان الارياف والبوادي المغربية، وذلك في إطار خاصية الملاحظة والاستقصاء التي اعتاد عليها مؤرخو وجغرافيو بل وحتى فقهاء الوسيط في بعض الاحيان لجمع أخبار جموع قبلية أو مراكز قروية لامستها بعض الأحداث والوقائع التاريخية؛ ثورات، نشاط اقتصادي أو سياسي... وعلى هذه المادة المصدرية سوف يتم بناء مضمون هذه المساهمة، وتقديم عناصرها بشيء من الترتيب والتحليل.

قبل الانطلاق في تقديم مادة هذه المساهمة، نرى بداية تقديم قراءة حول لقاء البداوة والمناخ وسبل الربط بينهما. البداوة حالة اجتماعية طبيعية يسعى فيها الإنسان إلى الحاجي والضروري من الأشياء، بدءا بالمعاش وانتهاء بالمسكن والمأوى، ولما كان الأمر كذلك فإن البداوة أقرب طباع البشرية استجابة للمناخ وتقلباته. وقد انتبه العلامة ابن خلدون لأهمية المناخ في توزيع البشر على المعمور[2] واختصاص كل أهل مجال بخصال وخصائص تترجم في طباعهم من الاعتدال والشدة، ذلك أن طبيعة الحر والبرد لهما أثر في الهواء، وبالتالي فيما يتكون فيه من الحيوانات[3]، ويتجاوز هذا التأثير المناخي شكل ولون الاجسام إلى سلوك الأفراد وممارساتهم وسبل انتعاشهم وانتظامهم. ولعل من شأن هذا الترابط بين الإنسان والمجال الطبيعي أن يدعم التوجه الجغرافي بتأثير العوامل الجغرافية وضمنها المناخ بطبيعة الحال على التاريخ كسجل للفعل الإنساني في مجال ما عبر الزمن، غير أن ذلك لا يمنح السلطة المطلقة للعوامل الجغرافية على العقل البشري الذي استطاع عبر ما اكتسبه من تجارب أن يطوع كثيرًا من العراقيل والصعوبات الجغرافية وأن يسخرها لقضاء حاجياته في أحيان كثيرة.

إن تناول مسألة تأثير المناخ على المشهد البدوي المغربي خلال الوسيط، ينطلق من مسلمة الانعكاس الثقافي للمجال في تكوين الإنسان حتى قيل "الإنسان ابن بيئته"، ذلك أنه "لا يمكننا إثارة أي شكل اجتماعي أو الحديث عنه دون التطرق لمسألة المجال"[4]، المجال الذي ربطه ريمون لودريت بالوجود، إذ "كلما تحدثنا عن المجال إلا ونجد أنفسنا نتحدث عن الوجود، وعن علاقات التواجد".[5] لا شك إذن أن تحديد المجال الطبيعي لا يقتصر على ضبط الخصائص التضاريسية بل يشمل المناخ والإنسان أيضا، ذلك أن عناصر المناخ فاعل أساسي في تشكل التضاريس، وكذا في تحديد شكل تفاعل الإنسان مع هذا الكل الذي يتضمن التضاريس والمناخ تأثرًا وتأثيرًا.

أولاً: بين المناخ والانتجاع

يتبدى لنا المشهد الريفي المغربي في الوسيط عموما من خلال المصادر كمجال استيطان قبلي، حيث تظهر القبائل كوحدات اجتماعية متنقلة أحيانا ومستقرة أحيان أخرى. وعبر شكل انتعاشها فيه يحدد موقعها من البداوة ما بين الخشونة المفرطة والبداوة الاقرب من الحاضرة حيث التحضر، وهنا تجدر الإشارة إلى ارتباط التعبير حضر بعنصر الماء، ذلك أن أحدهم عرف البادية على أنها "خلاف الحاضرة، والحاضرة القوم الذين يحضرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيظ، فإذا برد الزمان ظعنوا عن أعداد المياه وبدوا طلبا للقرب من الكلأ، فالقوم حينئذ بادية بعد ما كانوا حاضرة. ويقال لهذه المواضع التي يبتدي إليها البادون بادية".[6] وبقدر ما يبرز لنا هذا التعريف جانبا من جوانب الاختلاف بين البادية والحاضرة ودور الماء وحضور مواضع وجوده في الامر، فإنها تجعلنا نقف على أحد المشاهد التي تتكرر في متون المصادر الوسيطية عند الحديث البادية المغربية ألا وهي خاصية تنقل القبائل بين مجالات الانتجاع صيفا وشتاء أي تحت تأثير الظروف المناخية التي تؤثر على مصادر تغذية نجعة القبائل من بقر وإبل وغيرهما.

يعتبر الانتعاش من الرعي أحد أبرز الأنماط الاقتصادية المميزة لحياة البدو بالمغرب ذلك أنه من ضمن الثلاث أقسام التي حددها ابن خلدون للبدو نجد قسمين يرتبطان بالظعن بحثا عن المسارح والمياه لحيواناتهم، والذين منهم الشاوية أو القائمون على الشاة والبقر فهم ظعن في الأغلب" لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح بهم ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة"[7]. والقائمون على

الإبل وهم حسب ابن خلدون الأكثر ظعنا والأبعد في القفر مجالا، "لأن مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرارا من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلبا لماخض النتاج في رماله... فاضطروا إلى إبعاد النجعة وربما زادتهم الحامية عن التلول أيضا فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم"[٨].

لاعتبار قسوة الظروف المناخية التي يعيش على إيقاعها هؤلاء الظاعنين في الصحراء، فإن حياتهم كان بها من الشظف والشقاء ما جعل جل اعتمادهم في المأكل على اللبن واللحم، إذ لا يعرف البربر المهملين "في برارّي سجلماسه واودغست ونواحي لمطه وتادمكه الى الجنوب ونواحي فزان "الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب والغالب عليهم الشقاء والاتّشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم".[٩] غير أن قسوة الطبيعة ذاتها جعلت في هؤلاء من الجلد والقوّة ما ليس لغيرهم، مع ما كان لهم فروسيّة على الإبل وخفّة في الجري والشدّة والمعرفة بأوضاع البرّ وأشكاله والهداية فيه والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة[١٠]، فارتباط حياة بدو الصحراء ممَنْ ينتعشون من الرعي جعلهم يكتسبون مهارات تساعدهم في التأقلم مع قسوة المفاوز فكان أن اكتسبوا مهارات في الاستدلال على المياه، كما ساعدتهم خشونة أحوالهم في التغلب على المستقرين من أهل القرى والمداشر والمدن في حال اشتداد الأحوال المناخية وتعذر مواصلة البقاء في الصحراء، فبنو مسوّفة من صنهاجة مثلا في صحراء غير عامرة ما بين سجلماسة ومدينة غانة على مسيرة شهرين، لا يطمئنّ بهم منزل وليس لهم مدينة يأوون إليها إلّا وادي درعة[١١]، وقد يستغل هؤلاء البدو تزامن تواجدهم بمسارح الشمال صيفا مع حالات الضعف التي تلحق بقبائل المستقرين نتيجة الآفات والكوارث الطبيعية أو الاجتماعية، فيعملون على الإغارة على القبائل المستقرة وسلب الممتلكات. فأهل البادية يقول التادلي يحفرون حفرا لجمع ماء المطر، فإذا انحبس عنهم المطر رحلوا إلى مواضع الماء[١٢]، ما كان يشكل ضغطا من أهل بدو الجنوب على أهل الشمال و الشمال الغربي، فلا غرو إذن "بعد هذا أن ارتبطت أعوام المجاعات بأعوام المحل"[١٣].

ساهم استئناس القبائل للصحراء لنجعة الإبل في تنشيط الحركة التجارية بالصحراء، ذلك أن بين المغرب وبلد السودان "مفاوز وبرارّي منقطعة قليلة المياه متعذّرة المراعي لا تسلك إلّا في الشتاء وسالكها في حينه متّصل السفر دائم الورود والصدر"[١٤]، وهكذا كان بدو الصحراء يجمعون بين النجعة ومراقبة المسالك التجارية الصحراوية التي تنشط بفعل الظروف المناخية شتاء وتتعذر صيفا، فيكون توجه ناجعة الصحراء نحو الشمال ومناطق توفر المياه صيفًا واقعًا مرتبطًا بطبيعة المناخ واستجابة لحاجة حيواناتهم للمراعي.

ثانيًا: أثر المناخ على النشاط الزراعي بالبوادي المغربية

يرى ابن خلدون أن من كان معاشه من البدو "في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال وهم عامة البربر"[١٥]، وترتبط الزراعة في اللغة بشق الأرض وطرح البذر[١٦]، ففي التهذيب: "فلحت الأرض إذا شققتها للزراعة... والفلاحة صناعته"[١٧]، والريف كمجال بدوي "أرض فيها زرع وخصب، والسعة في المأكل والمشرب، وما قارب الماء من أرض العرب، أو حيث الخضر والمياه والزروع"[١٨]، فالبادية إذن مجال للزراعة والبدو المستقرون منتعشون بالزراعة لحاجتهم إلى الغذاء كأولى ضروريات البقاء بالنسبة للإنسان.[١٩]

الزراعة وفلاحة الأرض إذن من جملة المكاسب البشرية الضرورية لاستمرار الكائن البشري، و"أريحها، وأقربها إلى النجدة، والسلامة، واكتساب الاجر. وهي تنقسم قسمين: بعلا وسقيا، واحمدهما عاقبة واضمنهما سلامة؛ السقي بالعيون، ومن الأنهار والسواقي. والقسم الثاني: شاق متعب، وهو السقي بالآلات مثل النواعير، والسواقي، والدلاء التي تدور بها الابل والحمر والبغال، وأقلها الخطارت، وهذا القسم لا ينبغي ان يستعمل فيه ماء النواعير إلا أن يضطر إليها ولا معاش له من سواها، ويتولاها بنفسه؛ فإنه إن لا يتولاها بنفسه عظمت مؤونتها عليه، وقلت معونتها له، وربما اقتضته مؤونة الدابة والالة على جميع الحاصل، وربما اقتضته زيادة عليه".[٢٠]

يقوم العمل الزراعي في المغرب على الدورة الزراعية الثلاثية، إذ الارض بين بور وقليب ومعمور[٢١]، وبين مختلف هذه الاشكال من استغلال الارض في الزراعة يأتي المجهود المبذول ووفرة المياه من قلتها إلى جانب عوامل الأمن والجباية[٢٢] وأساليب الري[٢٣]، كأهم محددات النشاط الزراعي، وهي عناصر ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بعنصر المناخ. فمع توافق المعطيات والشواهد التاريخية مع طرح عز الدين أحمد موسى من أن "الزراع أكثر الناس في المغرب تأثرًا بأوضاع الأمن"[٢٤]، فإننا نتفق مع رأي المرحوم عمر بنميرة بكون التقلبات المناخية لعبت دورًا حيويا في توجيه النشاط الزراعي، ذلك أن تقلبات

المناخ خلال العصر الوسيط جعلت من الماء هاجسا لدى المغاربة[٢٥]، بل الأكثر من ذلك أنه إذا ما تم الربط بين مختلف التقلبات التاريخية والتطرفات المناخية التي شهدها المغرب خلال الفترة، نجد أن لهذه الأخيرة دورا أساسيا في حدوثها أو التأثير عليها، وعليه ففي المحصلة يجب البحث في المناخ كمحدد أساسي من محددات المشهد الزراعي بالمغرب الوسيط، حيث لم يكن للفلاح المغربي من المؤهلات التقنية والمعرفية ما يكفي لجعله في مأمن من هذه المؤثرات المناخية من جهة، ومما كان يرتبط بها من تقلبات اجتماعية وسياسية من جهة أخرى.

يرى د. أحمد عز الدين موسى أن "طبيعة الارض تؤثر في تحديد نوع المناخ وتوزيع المياه ومن ثم في مناطق الاستقرار والطرق التي تربطها"[٢٦]، ويتفق هذا القول مع الوضع المناخي لبلاد المغرب حيث تلعب سلسلة جبال الاطلس دورا هاما في التقسيم المناخي للبلاد. ذلك أنها بارتفاعها تشكل حاجزا طبيعيا يحجب السفوح الجنوبية الغربية عن الامطار، فيتجاور فيه المناخان: المتوسطي والصحراوي[٢٧]. ويترتب عن هذا الوضع المناخي تباين الانشطة الزراعية بين مناطق السهول الساحلية والسفوح الشمالية للأطلس حيث الخصوبة ووفرة المياه، وبين المناطق الجنوبية والسفوح الجنوبية للأطلس حيث الحر وندرة المياه.

مما تحتفظ به بعض الإشارات المصدرية حول الانشطة الزراعية بالمغرب الوسيط وعلاقتها بطبيعة المناخ السائد، ما سجله عدد من الجغرافيين العرب حول الزراعة بسجلماسة، فأهلها حسب اليعقوبي أخلاط يغلب عليهم البربر وأكثريتهم صنهاجة "وزرعهم الدخن والذرة وزرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم فإن لم يمطروا لم يكن لهم زرع"[٢٨]. ويضيف ابن حوقل في خصوصية زراعة الحبوب بنفس المجال، فيقول "وربّما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت السنون بالمياه فكلّما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير بحبّ صلب المكسر لذيذ المطعم وخلقه ما بين القمح والشعير ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنّة ولهم رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة".[٢٩] ويفسر صاحب الاستبصار هذا الوضع بفرط الحر وشدة القيظ، يقول "فإذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد وأرضهم مشققة فيقع ما يتناثر من الحب في تلك الشقاق، فإذا كان العام الثاني أخرجوا النهر على عادتهم لأن ماء المطر قليل فيها وحرثوا بلا بذر؛ وكذلك العام الثالث".[٣٠]

ومن مظاهر تأثير المناخ على الزراعة ما جاء في كتاب الفلاحة حول أوقات غراسة الاشجار والملوح والعيون والاوتاد في البلاد الحارة، ينبغي "أن يكون غرس الاشجار في الخريف، وخاصة إذا كان البلد قليل الماء؛ ليلحق الغروس رطوبة أمطار الخريف والشتاء والربيع".[٣١] غير أنه "لا بأس به في الربيع".[٣٢] ويعلل ذلك ابن العوام بقوله في موضع أخر أثناء حديثه عن غراسة الزيتون، حيث يقول: "ذلك أن الارض تكون حارة لحر الشمس في وقت الخريف، وتكون رطبة من الأمطار الخريفية، وتكون في الأرض حرارة ورطوبة من اعتدال مزاج الهواء في ذلك الوقت".[٣٣] فيما تتباين فترة الحصاد من مجال لأخر ويبدأ من ماي إلى يوليو، لاعتبارات أهمها شدة الحر وزمن الزراع.

ثالثًا: أثر المناخ على السكن بالبادية

لما كان المسكن من ضمن أولويات الحياة الإنسانية فإن الكائن البشري عمد منذ العهود القديمة إلى اتخاذ الكهوف مساكن يأوي إليها طلبا للراحة والاطمئنان[٣٤]، وعلى هذه الحال استمر أهل البادية لما في أفكارهم من قصور عن إدراك الصنائع البشرية -حسب ابن خلدون- "فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج".[٣٥]

شكل بحث الإنسان عن المأوى إذن استجابة فطرية لقساوة الظروف الطبيعية المناخية منها على وجه الخصوص، وتبعا لذلك تتنوع أشكال المنازل القروية بتنوع أنماط العيش وطبيعة المناخ، وعموما فقد شكلت البيوت المتخذة من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير المنحوتة، أهم مساكن البادية الوسيط حسب ابن خلدون[٣٦]، ذلك أن البدو حسب هذا الأخير لم يرموا من اتخاذ المساكن غير الاستظلال فكان أن اقتصرت استجابتهم للعوامل المناخية على اتخاذ منازل تتوافق ونمط انتعاشهم فسكن أهل الوبر منهم بالخيام والحلل وأهل المدر بالمداشر[٣٧] والقرى، حيث دفع اشتغال هؤلاء بالزراعة والفلح إلى الاستقرار عكس أهل الوبر المنتعشين من الانتجاع والذين تدعوهم حاجة حيواناتهم إلى المسارح والمياه إلى التنقل في الأرض[٣٨]، وبالتالي لم يكن لهم اتخاذ مساكن قارة بقدر ما يعمدون إلى اتخاذ الخيام كمساكن يمكن نقلها من مكان لأخر.

يعرف ابن منظور الخيمة على أنها "بيت من بيوت الأعراب مستدير يبنيه الأعراب من عيدان الشجر"[٣٩]، وتبنى الخيمة أيضا بالحجارة كما تنسج من وبر أو صوف،[٤٠] كما استعمل الترك "الخيام المتخذة من اللبود لشدة البرد في بلادهم"[٤١]، ولا تصنع الخيمة من الثوب.[٤٢] واتخذت الخيمة مدلولا سوسيولوجي

فعينت بها الخلية الصغيرة داخل النظام القبلي (فخذة قبيلة)، وبمعنى اضيق "الكانون" او "الاسرة" المؤلفة من زوج وزوجه وعيالهما إذا كان لهما عيال.[٤٣]

ذهب الناصري إلى أن "الخيمة بأرض المغرب معدومة رأسا أو قليلة جدا لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر وكهوف الجبال واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة"[٤٤] أي إلى حين القدوم العربي للمنطقة. ويتفق مع هذا الرأي الاستاذ محمد استيتو الذي يرى أن هذا النوع من السكن كان قائما في المناطق الجنوبية إلى جانب سكن المستقرين، إلا أنه "توسع أكثر في العصور الوسطى مع ولوج القبائل العربية إلى المغرب، ثم انتشر اكثر من ذلك حتى بين القبائل المستقرة في السهول الشمالية، بسبب الاضطرابات السياسية والامنية التي شهدتها البلاد في الازمنة الاخيرة من حكم المرينيين وابناء عمومتهم الوطاسيين وبسبب الغزو الايبيري لمعظم سواحل البلاد"[٤٥]، وقد انتظم السكن في الخيام في الجنوب في شكل دواوير من عدة خيام متفاوتة الاعداد على حسب أعداد الأسر داخل القبيلة وفروعها[٤٦]

يبدو أن الخيمة كشكل هندسي كانت تخضع للمعطى المناخي ذلك أنها كانت غالبا ما تتخذ شكلا يسمح بمرور الهواء بشكل مرن يساهم في صمود عمود وركائز الخيمة وبالتالي ثبات هذه الاخيرة عند هبوب الرياح، ومن جهة أخرى فإن طبيعة المواد المستعملة في بناء الخيمة تجسد هي الاخرى مراعاة الهاجس المناخي في عملية البناء، ذلك أن استعمال الوبر والصوف دون الثياب في نسج الخيام يرجع إلى قدرتها على صد قطرات الماء في حال تصادف الرحل مع التساقطات المطرية، وعلى ما يبدو فقد أبلت الخيام بلاء حسنا في مواجهة الظروف المناخية، الشيء الذي يبرر امتداد مجالات انتشارها في المغرب بعد القرن الخامس الهجري، إلى مناطق المستقرين في السهول الشمالية.

ينتظم المستقرون من البدو في مداشر وقرى مشكلة من عدة مساكن مبنية بالمواد المتوفرة محليا من تراب أو حجارة أو غيرهما، وتخضع كمثيلتها التي للرحل للمعطى المناخي، مع التباين الواضح في عناصر ومواد البناء والتي يبدو أنها تخضع لنمط العيش السائد، فلشظف العيش وحر الصحراء مثلا بالصحراء انتظم صنهاجة أودغست حسب ابن حوقل في "نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نوّالة وخصّ...."[٤٧]. والخص بيت من شجر أو قصب[٤٨]، وهو أيضا "البيت الذي يسقف بخشبة على هيئة الأزج. وسمي خصا لما فيه من الخصاص، وهو التفاريج الضيقة".[٤٩] فيما كان أرستقراطية سبتة حسب محمد الشريف يشيدون منازل للراحة بضواحي المدينة، عرفت باسم "المنية"، كما سجل نفس الباحث أن منازل بليونش إحدى ضواحي المدينة "كانت محصنة بأبراج مقببة، وذات طابع دفاعي. ومن الراجح أن اشكال تلك المنازل هي اشكال قديمة، وتشبه منازل بادية غرناطة".[٥٠]

وإذا كانت المصادر لا تسمح لنا كثيرًا في الكشف عن هندسة المباني القروية خلال هاته الفترة، إلا أنها تمنحنا إشارات عن بعض العناصر المستعملة في البناء، فقد سجل أحد الباحثين أسماء عدد من أنواع المساكن المنتشرة في المجال القروي، والتي منها؛ الأكواخ، النوايل[٥١]، دور صغيرة مبنية بالحجر الصلد، مساكن من خشب أو من حيطان مملطة بالطين والجبس، أكواخ من حصير الأسل...[٥٢]، والملاحظ أن ما يجمع بين هذه الاشكال من المنازل هو البساطة واستغلال المواد المحلية، مع ما يعتري بعضها من عدم القدرة على مواجهة الظروف المناخية أحيانًا، كما هو الحال بالنسبة لمساكن حوز فاس والتي كانت بسيطة جدًا مبنية بالحجارة والطين إلا أنها غير رصينة البناء ولا تقاوم الأمطار إلا بصعوبة. فيما يلجأ سكان قرى زيز إلى التبن لتسقيف مساكنهم لمنع تسرب مياه الأمطار، ولنفس الغرض استعمل القش وغصون الأشجار وعروشها في مناطق أخرى من الأرياف المغربية.[٥٣]

خَاتِمَةٌ

قد تكون الأخبار عن البادية المغربية خلال العصر الوسيط شحيحة، نتيجة لبساطة حياة أهلها وطموحاتهم السياسية، لكن ما رشح عنها في بعض المصادر التاريخية، خاصة منها كتب الرحلات والجغرافيا، يسمح للباحث بالوقوف على جملة تقاطعات بين الحياة البدوية وعنصر المناخ، حتى أنه يبدو هذا الأخير محددا مركزيا لمختلف مناحي حياة الإنسان البدوي. يمكن للمناخ أن يفصح عن العديد من العناصر الخاصة بالحياة البدوية بالمغرب خلال العصر الوسيط، فالتنوع الحاصل في ممارسة الأنشطة الفلاحية من زراعة ورعي، كان استجابات بشرية لمتغيرات مناخية، والشيء ذاته ينطبق على اتخاذ المساكن بالبادية المغربية، والمواد المستعملة في إنشائها.

لقد مارس المناخ تأثيرًا على الإنسان بالبادية المغربية خلال العصر الوسيط، فلم يكن انعكاس تقلباته على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية به، مجرد أثر عابر يظهر متجليًا أوقات التطرف المناخي وينتفي بعدها، إنه داخل في العمق الثقافي والحضاري لهذه العينة من المجتمع المغربي، ومحددا لأساليب عيشهم وانتعاشهم، بل وتفكيرهم، إنه (المناخ) رفيق حضارة البادية، مهندس ثقافة أهلها. وعمومًا، فدراسة الحياة البدوية بالمغرب خلال العصر الوسيط من زاوية عنصر المناخ، يمكن أن تشكل منفذا ذي فائدة في إعادة تفسير بعض الأحداث والوقائع التاريخية وترتيبها.

الاحالات المرجعية:

(١) عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (القرنان الثامن والتاسع/ ١٤ و١٥)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٧، مطبعة الأمنية- الرباط، ط١، ٢٠١٢، ص٢٧٩.

(٢) ويتفق معه في هذا الباب المقدسي، الذي أورد نقلا عن بعض المنجمين القول بأن "الخلق كلّهم في المغرب ولا يسكن المشرق أحد من الحرّ وسمعت غيره يقول من البرد" (المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي القاهرة، ١٤١١/١٩٩١. ص ٥٨.

(٣) ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨/١٩٨٨م، ج١، ص ص١٠٥- ١٠٩.

(٤) عبد الرحمن المالكي، **الثقافة والمجال دراسة في سوسيولوجيا التحضر والهجرة في المغرب**، منشورات مختبر سوسيولوجيا التنمية الاجتماعية، ط١، جامعة سيدي محمد بن عبد الله- كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز- فاس، ٢٠١٥، ص٥١.

(5) R. Ledrut, **la forme et le sens dans la société**, Ed. Librairie des Méridiens, Paris, 1984, p112.

(٦) الزَّبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٣٧، ص١٤٩.

(٧) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص١٥١- ١٥٢.

(٨) نفسه.

(٩) ابن حوقل، **صورة الأرض**، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨، ج١، ص ص٨٣-٨٤.

(١٠) نفسه، ج١، ص ١٠٢.

(١١) البكري، **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م، ج٢، ص ٨٣٧.

(١٢) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٧، ص ٢١٨.

(١٣) عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي بالمغرب الإسلامي خلال القرن ٦ه/١٢م**، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص٦٥.

(١٤) ابن حوقل، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٤.

(١٥) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص ١٥١.

(١٦) الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٨، ١٤٢٦ - ٢٠٠٥م، ص ٧٢٤-٧٢٥.

(١٧) الأزهري، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٥، ص٤٧.

(١٨) الفيروز آبادي، المصدر السابق، ص ٨١٥.

(١٩) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص٥٤.

(٢٠) ابن العوام الإشبيلي، **الفلاحة الأندلسية**، ج١، تحقيق أنور أبو سويلم وسمير الدروبي وعلي ارشيد محاسنة، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان- الأردن، ط١، ١٤٣٣/٢٠١٢م، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٢١) عز الدين أحمد موسى، المرجع السابق، ص١٨٩.

(٢٢) عمر بنميرة، المرجع السابق، ص ٩٤-١١٢.

(٢٣) يرى الأستاذ عمر بنميرة، أن الفلاحة المغربية تقوم على "ثلاث مصادر مائية، وهي التساقطات الموسمية، الانهار، ثم العيون والآبار". عمر بنميرة، المرجع السابق، ص٢٩١.
(٢٤) عز الدين احمد موسى، المرجع السابق، ص١٨٩.
(٢٥) عمر بنميرة، المرجع السابق، ص٢٨١.
(٢٦) عز الدين احمد موسى، المرجع السابق، ص٤٩.
(٢٧) نفسه، ص٥٣.
(٢٨) اليعقوبي، **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ه، ص ١٩٨.
(٢٩) ابن حوقل، المصدر السابق، ج١، ص ٩١.
(٣٠) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية- بغداد، ١٩٨٦م، ص ٢٠١.
(٣١) ابن العوام الإشبيلي، المصدر السابق، ص ٥٨٩.
(٣٢) نفسه، ص٥٩٥.
(٣٣) نفسه، ص٥٩٤.
(٣٤) مولاي التقي العلوي، **أصول المغاربة**، إعداد وإخراج علال ركوك وحفيظة الهاني، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، مطبعة المعارف الجديدة- الرباط، ٢٠١٦، ص٢٩.
(٣٥) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق،.، ج١، ص٥١٠.
(٣٦) نفسه، ج١، ص١٥١.
(٣٧) المدشر أو الدشرة: أصلها الجشرة أو المجشر وهو عبارة عن قرية محصنة يقطن بها المستقرون، عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، ج١، ص ٢٨٢.
(٣٨) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص١٥١.
(٣٩) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤ه، ج ١٢، ص ١٩٣.
(٤٠) جمال بيلول، **المصطلحات المعمارية المدنية**، ط١، أفريقيا الشرق، ط١، ٢٠١٤، ص٥٠.
(٤١) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج٥، ص٤.
(٤٢) ابن منظور، المصدر السابق، ج١١، ص ٤١٨.
(٤٣) محمد استيتو، "**مأوى المساكين والفقراء والغرباء في المغرب خلال العصر الحديث (نماذج من القرنين ١٦ و١٧م)**"، ضمن مؤلف؛ دراسات تاريخية في العمارة والسكن، تنسيق: محمد استيتو وعبد المجيد بهيني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية -وجدة، ط١، ٢٠٠٨، ص ١١٠.
(٤٤) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٥٦، ج٢، ص١٦٢.
(٤٥) محمد استيتو، المرجع السابق، ص١١١.
(46) Louis MASSIGNON ; **Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle**. Tableau géographique d'après Léon L'AFRICAIN. Alger 1906, p116.
(٤٧) ابن حوقل، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٠.
(٤٨) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار الدعوة، ج١، ص ٢٣٨.
(٤٩) محمد بن أحمد بن الأزهري، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج٦، ص٢٩٢.
(٥٠) محمد الشريف، **سبتة الإسلامية دراسات في تاريخها الاقتصادي والاجتماعي (عصر الموحدين والمرينيين)**، منشورات جمعية تطاون- اسمير، ط٢، الرباط، ٢٠٠٦، ص١٧١.
(٥١) "بيت مخروطي الشكل يتألف من عمود في الوسط ومظللة بأوراق الشجر" (جمال بيلول، المرجع السابق، ص ١٤١) وقد اعتمدت هذه البيوت زمن المرابطين والموحدين حسب اشارة لابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين**، تحقيق: محمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ج٤، ص ٢١.
(٥٢) محمد استيتو، المرجع السابق، ص ص١١٢-١١٨.
(٥٣) المرجع نفسه.